تحائف مطوية :

ول زيارة للمسجد الأقصى

الأستاذ أحمـــد رمزى

كان حتماً علىّ أن أسافر بالباخرة التركية « أزمير » من ثغر كندرية فى ربيع سنة ١٩٣٥ ، وإذا تأخرت احتج رياض الصديق العزيز مدير المستخدمين ، ومحبته لدى فوق كل ء ، فلم يكن هناك بد من أن ألحق قطار الصباح المبكر من ة صغيرة بالريف المصرى لأكون على الباخرة قبل موعد ها . وكانت الساعة الرابعة صباحاً حينما استيقظت وخرجت منزلى فى يوم برده محتمل وسماؤه لا تزال نجومها ظاهرة ، اذ من بعض المطر الليلى يتساقط من جريد النخل العالى ، ن أمامى أكثر من كيلو متر ونصف سرتها على شريط السكة يدية قفزاً على الفلنكات الخشبية ، حتى دخلت القرية وأهلها

شرقيينا الأعزاء فما أسرع من ظهور التدجيلة بينهم إلا أن يها ويقبلوا عليها ، لأنهم يتلذذون بالاستغفال كما يتلذذ بعض ال بالاغضاء عن العرض فى غير سبيل ... ولو سبيل المال .

وأقسم إننا لا نمزح فيما نقول ، لأن الغفلة لذة عند المغفلين وعين على هذه الخليقة . فهى نوم أو استرسال ، ولا عناء لنوم أو الاسترسال ، وإنما العناء فى اليقظة والانتباه ، ومن المخدوع ينام ويسترسل فهو لا يزعجه بهذا الترك المريح ، لكنه يزعجه أشد الإزعاج حين يفتح عينيه ويصيح فى أذنيه ، يره من اللصوص والطراق .

معشر الدجالين !

ما قولكم فى مذاهب الإصلاح كلها منذ القديم ؟

إن قلتم إنها باطلة فقولوا عن الديمقراطية إنها باطلة لأنها سم الشرور ولم تجعل الديمقراطيين من الملائكة الأبرار .

وإن طال بكم المطال على هذا المقال فالبركة فى « إرادة الغفلة » تفتح لكم مجال القول فتقولون ما تشاءون .

عباس محمود العقاد

نائمون . وقد ظهر ضوء المحطة من بعيد ، فإذا بقهوة عبد القدوس فى الشارع الرئيسى تفتح أبوابها وعلى مقعدها قارىء يرتل آيات الذكر الحكيم ، ما طلتنا على الزاوية إلا وهو يستقبلنا بقوله تعالى « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين » تهلل وجهى واستبشرت وفرحت بهذا اللقاء وزال أثر التعب ، وعددت هذه نعمة من نعم الله .

ولم يمض على ذلك سوى شهر أو بعض شهر حتى صدر أمر ملكى عين بمقتضاه قنصلا لمصر بمدينة القدس على رأس قنصلية عامة يشمل اختصاصها كل أراضى فلسطين وشرق الأردن ، فانتقلت من حياة ألفتها فى تركيا أو عودت نفسى عليها إلى حياة أكثر نشاطاً وإنتاجاً وحركة وأعمق أثراً ، ورددت كل ذلك إلى القارىء الذى استفتحت بوجهه .

شعرت بأن نفسى قد اطمأنت وقنعت وتركزت حينما نسيتنى وزارة الخارجية لمدة تزيد على سبع سنوات فى أراضى الجمهورية التركية ، فغدوت لا أشكو من شىء ولا أطلب الرحمة من أحد ، وتحجر قلبى فلم أعد أخاف من الوعيد أو التهديد ، أو يحركنى التهويش ، وكنت أنظر إلى الماضى فأراه قد مرّ بغير تبديل ، وإلى المستقبل فأقول بأنه سيمر على وتيرة واحدة كما ذهب الماضى ، وأحدث نفسى بأن أرجو لكثيرين من ذوى الأطماع والنفوس الطامحة أن ينتهوا إلى الحالة النفسية التى انتهيت إليها ، ذلك لأننى بمضى السنوات ومرورها متشابهة متلاحقة ، وجدت اليقين المفقود ووصلت إلى تسكين البال وراحته ، وهما أعظم ما يمكن أن ينال الإنسان إليه إذا بقى اسمه منسياً . ومر علىّ هذا الزمن وهو مملوء بالحوادث أتفرج عليها وأقيدها وأتأمل فيها ، وكان أكبر انتصار على النفس هو أن يردها صاحبها عن أن تقف فى الصف الأول أو يقعدها عن أن تزج بنفسها فى أمور لا يتسامى إليها إلا أولو العزم الشديد والعبقرية الفائقة .

ووصلت إلى شىء من ذلك بالران حيناً وبالضغط أحياناً حتى وفقت لحد ما إلى تكييف حياتى ، فلاءمت بينها وبين عملى وتفكيرى ، وعودتها الرضا مع اليقظة والقناعة مع الانتباه ، ولم يمض وقت طويل حتى تبين لى أن أعظم الأشياء والحوادث من سياسية واجتماعية والتى يراها الناس بمظهر الجد ويلقون عليها مسحة من الاهتمام ، تفقد رونقها الجدى وأهميتها إذا نظرنا إليها بنظرة

بعيدة عن الجد ، وحللنا كل موقف وكل حركة على أنها إنسانية صرفة . وقد أتاحت لى الخدمة بالخارج معاينة الكثير من هذه المواقف فأصبحت بعض المسائل ذات الصف الأول مثاراً للضحك والسخرية لو عرف الناس حقيقتها الأولى .

إن اعتقاد الكثيرين من الناس أن لديهم مزايا خارقة للعادة ، وغالبيتهم من الأذكياء كان سبباً فى وقوعهم فى أخطاء ، من ذلك توهمهم أنه بوسعهم غش المجتمع الذى يعيشون فيه أو الضحك على لحى كل من يتصل بهم ، والوصول إلى تغطية الحقائق وإنكارها مدة طويلة من الزمن . إن هؤلاء قابلتهم كثيراً فى أوساط الأمم الشرقية فكانوا أول الضحايا لأطماعهم ، وكانوا هم المخدوعين بأنفسهم حينما حاولوا خداع الناس وغشهم . وكانت هذه الأفكار تعاودنى فى وقت انتهيت فيه إلى الاكتفاء بما كنت عليه ، إلى الاقتناع بأن كفايتى وعملى وتجاربى وهذه هى كل رأس مالى ، أقول قد أوصلتنى بالطرق والأساليب التى اطمئن إليها للنقطة التى تركزت فيها ، فلم أكن أفكر ولا أؤمل ولا أنتظر شيئاً من التغيير أو التبديل أو المزيد .

هذه كانت حالتى حينما دهمتنى حركة من حركات السلك السياسى المصرى ، فإذا أنا بغير تحضير أو بذل مجهود أو رجاء ، أنقل من بلاد اقتطعت سبع سنوات ونصفاً من عمرى فى دراستها وفهمها إلى بلاد جديدة أعلم عنها أشياء وأجهل عنها أشياء ، وما أجهله أكثر مما أعلمه برغم قربها وجوارها ومحبتى لها .

وكان هذا النقل حداً فاصلا فى حياتى ، إذ لو بقيت بتركيا أو نقلت لأميركا لاتجهت حياتى اتجاهاً آخر ، ولربما لم يكن لى هذا الشرف بأن أكتب هذه الكلمة ، وأن يقرأ لى قراء الرسالة بعض ما أكتب اليوم . ولقد جاءت هذه النقلة وليدة المصادفة والأقدار ، رمية من غير رام ، ذلك لأن أولى الأمر لم ينظروا فيها إلى تحقيق شىء من المصلحة العامة أو ما يلابسها من اختيار الأصلح أو الأوفق وإنما قصدوا سد خانة من بعض خانات كانت مفتوحة أمامهم فقذفوا بى إليها ، وكان ذلك من حظى إذ غدوت جندياً من جنود الإسلام والعروبة حينما تفتحت أنظارى على أرض فلسطين ومنازل الوحى الخالدة والنبوة .

وحضر قوم لتهنئتى أو لتعزيتى ، إذ المتفق عليه أن القدس والشرق منفى يرسل إليه من أفلس فى بلاد أميركا وأوربا ليستجم ثم يعود إلى بلاد النور . وهذا ما تراءى لهم ، وقد كان يصح أن يبدو لى شىء من ذلك ، ولكن الآية التى سمعتها من ذا القارىء الأعمى فى محطة من إقليم الشرقية كانت تخفف و كل هذا على ّ وتجعلنى أسلم بأن فى ذلك الخير كل الخير ، وأقو هذه إرادة المولى : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى »

ووصلت إلى مدينة القدس فى الجزء الأخير من سنة ١٣٥ لأتولى عملا جديداً ولألقى وجوها جديدة . وكان أول ما قمت هو توجهى لزيارة المسجد الأقصى ، وكان ذلك فى شهر رمضان ودخلته وأنا على نية ثابتة بأنه المسجد الذى ورد ذكره فى الآ التى تلاها القارىء .

دخلته وقد غمرتنى نفحة من نفحات الله ، جعلتنى أشعر قرارة نفسى بحوادث التاريخ الجلى التى حملها هذا الصعيد ، وكا كل ركن من أركان هذا المسجد يشير إلى ، وكأن كل حجر م أحجارقبة الصخرة يحادثنى . ثلاث عشرة مائة من السنين ، تر ضخمة من الجهاد والمجد ، هل يدرك أهلها ما هى ؟

إن الأمم الإسلامية التى نعيش وسطها . ونحيا ، كانت تبا فى ذلك الوقت وقد أفلست إفلاساً يكاد يكون تاماً فى حيا وتنازلت عن حيويتها وعن أى مظهر من مظاهر الاستقلال حتى اعتقد كثيرون أنها موطن الخمود والنوم والجمود والتخاذل فهل تكون لها عودة ؟ وهل تقوى أذرعتها ونفوسها الواهية ع حمل الأمانة ؟ أم ستقعد بها الهمم ؟ يوم لم تعد تفكر فى شىء سوا ملاذها وتكالبها على المادة وما تسوقه إليه غرائزها الواهية حينما فقدت كل عناصر القوة والأنفة ، وانحطت إلى درجة الجم فلم تعد تهمها هذه المساجد والمدارس ، أو تترك فى نفوسها شيء أو بعض الشىء ، وبعد أن خيل إلى كثيرين أن باتت لديها كا دوافع الكفاح وفنيت فيها بواعث الثورة والدعوة لخير العمل

كنت أطوف بالصخرة وأنا أتأمل كل ذلك وأقول مع تتحرك أمم العروبة وتنهض من كبوتها وتستيقظ من نومها العميق وتخلع ما هى فيه من ذلة ومسكنة ؟ إن كل ما أراه أمامى فى وجوههم وسيرهم ومعاشهم وفى المدن وفى القرى يدعو إلى الأسى والألم ، وهم بعيدون كل البعد عن حيوية المبادىء التى قامت عليه الرسالة المحمدية الكبرى .

سرت فى أنحاء الحرم وهو متسع الأرجاء ، لا أقول يكاد يكو خالياً ، بل هو أكثر من أن يكون خالياً ، أما أنا فتخيلته فى نفسى يفيض بصفوف المصلين : كان يبدو لى صحنه ووجهاته

جوانبه يوم الفتح الأكبر ، يوم دخله سلطاننا صلاح الدين بجند مصر فأقام أول صلاة للجمعة فيه ، وكيف تبارى العلماء والفضلاء فجهز كل واحد منهم خطبة بليغة طمعاً في أن يكون خطيب ذلك اليوم .

كنت أفكر كيف أذن المؤذنون على منائر المسجد الاقصى بأسواره فارتجت المدينة بأصوات التكبير والتهليل ، ومر أمامي كيف تقدم الملك السلطان المتواضع بقبة الصخرة فرسم للقاضي محيي الدين محمد بن زكي الدين علي القرشي ، أن يخطب ، وكيف لبسه العماد الكاتب جبة سوداء من تشاريف الخلافة العباسية ، فلبسها وصعد المنبر واستفتح بسورة الفاتحة ، فقرأها بأكملها ، ثم قرأ أول سورة الأنعام ، ثم قرأ من سورة الأسراء ، ثم قرأ من سورة الكهف ، ثم من سورة النمل ، ثم من سورة سبأ ، ثم من سورة فاطر ، كما نجد ذلك مفصلا في كتاب الأنس الجليل .

ثم شرع في الخطبة فبدأها : «الحمد لله معز الأسلام بنصره» وصلى على نبيه الذي أسرى به ليلا من المسجد الحرام إلى هذا المسجد الأقصى وعرج به إلى السموات العلا إلى سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ... وذكر أبا بكر وعمر وعثمان وعلي وصلى على آله وأصحابه والتابعين ؛ وقال « أيها الناس أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة وردها إلى مقرها من الأسلام ... وتطهير هذا البيت الذي أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه »... لقد جددتم للاسلام أيام القادسية والملاحم اليرموكية والمنازلات الخيبرية والهجمات البدرية...»

كان كل هذا يمر أمام عيني ورأسي مطرق وخطواتي سريعة وأحبس الدمع في عيني حتى انتهيت من قبة الصخرة واتجهت إلى المسجد فدخلت إلى المحراب لأقرأ أثر السلطان المجاهد بحروف ذهبية :

«أمر بتجديد هذا المحراب المقدس ، وعمارة المسجد الأقصى الذي هو على التقوى مؤسس ، عبد الله ووليه يوسف بن أيوب أبو المظفر الملك الناصر صلاح الدنيا والدين عند ما فتحه الله على يديه سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة » .

فأديت تحية المسجد في هذا المحراب الخالد وترحمت على بانيه وعلى أرواح الشهداء وشعرت براحة تملأ نفسي حينما خرجت متجهاً إلى المجلس الإسلامي الأعلى ، ماراً بمدرسة قايتباي سلطان مصر ، واستقبلني أعضاؤه ومعهم سماحة مفتي فلسطين الأكبر ، وقد غمر الإيمان نفسي وتملكتني نشوة لم أتمالك لساني عن التعبير عما يجول بين جوانحي . قلت :

« إننا في فلسطين ومصر أمة واحدة ، اشترك الآباء والأجداد في هذا التراث الإسلامي العربي كما اشتركنا في السراء والضراء ، فهم قد واجهوا الموت معاً ، وعاينوا الهزائم سوياً ، كما فرحت نفوسهم بأيام النصر المتلاحقة المتتابعة . وها نحن اليوم نلاقي من أيام الشدائد ما يذكرنا بالأيام الحالكة السواد التي عاشها السلف ومن تقدمنا ، فهل كانت أيامهم أقل سواداً من الأيام التي نعيشها ؟ كلا كانت أشد وأوقع ، فلم يفت ذلك في عضدهم ولا لانت قناتهم أمام مصائبها ، ولذلك ألقوا علينا درساً باستشهادهم وموتهم وهزائمهم ومعاركهم وانتصاراتهم ، ألقوا علينا درس يقظة وصبر وأناة وعناد وتمسك بالعروة الوثقى وتعاليم الإسلام الخالدة .

يا صاحب السماحة! إن دروس الماضي باقية في نفوسنا لن تبيد أبداً ، وإننا نستمد منها قوة إذا ضعفت قوتنا ، ونستلهم من وحيها آمالا إذا ضعفت آمالنا في المستقبل . وإنا لنأتي إلى هذه البقعة الطاهرة وننظر إلى هذا الجامع وإلى صحنه ورحباته وصخرته فنجدد عهدنا لكم ، وتغمرنا روح الإيمان والثقة والتمسك بالأمانة التي في أعناقنا نحن إخوانكم الذين اشتركنا معكم طول القرون الماضية ، ولنؤكد لكم مرة أخرى أن مصيرنا مرتبط بمصيركم وأن حياتنا لا قيمة لها بدونكم .

وأقول إننا نعيش أياماً مملوءة بالآلام والأحزان ، ولكن المستقبل لله وحده ، وهو الذي ذكرنا في محكم آياته ، وأنزل سكينته على قلوبنا وخط في سجل القدر أن هذه الأرض لنا ، وأن الأيام التي وعدنا بها مرة بعد مرة ، آتية لا ريب فيها .

إن كل الدلائل لتقنعني أن الأمم العربية ومعها مصر ستبعث بعثاً جديداً » ...

كانت عيونهم تفيض بالإيمان ودموع الغبطة ، وكانت مودة وصداقة وأخوة ، وبدأت حياة جديدة ودخلت دنيا يعمرها الإيمان والعمل في سبيل الله ، وكان التوفيق وحقت كلمته تعالى فكانت هي العليا .

حصل ذلك في صباح يوم السبت ١٤ ديسمبر ١٩٣٥ وكانت أول زيارة رسمية لي بالقدس وأول عمل أبداه .

أحمد رمزي

القنصل العام السابق لمصر بسوريا ولبنان